ليوني شولر

نساء سُرقن

مفكرات

باحثات رائدات:

بطلاتٌ خفياتٌ في التاريخ

مقدمة

في قديم الزمان، كان هناك صيادون وجامعو ثمار. كان الرجال هم الصيادون، والنساء هُن الجامعات. عندما كان الصيادون يخرجون معًا للصيد، كانت النساء يجمعن البذور والثمار والأعشاب والجذور الصالحة للأكل. وبينما كان الرجال يجمعون لصنع أسلحة جديدة من الحجارة، كانت النساء يطهين يخنات مغذية، ويرعين صغارهن. وهكذا، كان كل شيء منظمًا بوضوح - كانت أدوار كل جنس في المجتمع تُحددها قدراته واختلافاته البيولوجية. عندما وطأ البشر الأوائل الأرض قبل حوالي 2.2 مليون سنة، ربما كان تطورهم بدائيًا بمعايير اليوم - لكنهم كانوا قد فهموا بالفعل النظام الطبيعي للرجال والنساء. رجل وامرأة، ين ويانغ، متضادان يتجاذبان!

هكذا تقريبًا هي قصة البشر الأوائل كما تعلمتها في المدرسة. ربما تعلم معظم من يقرأون هذه الجمل الآن الشيء نفسه! سواء في الكتب أو الأفلام أو حتى في المتاحف: لا يزال تاريخ الصيادين والجامعين يحكي اليوم بقوة عن الجنسين. تُظهر الرسوم التصويرية رجالًا من العصر الحجري يحملون الرماح والفؤوس في أيديهم، يزأرون بصوت عالٍ وهم يطاردون ثورًا، بينما تجلس النساء معًا في هدوء، يُرضعن مولودًا جديدًا من كل ثدي متاح. قد يقول البعض: "وماذا في ذلك؟ هذا صحيح أيضًا. لقد أكدت الحفريات كل هذا منذ زمن طويل!". وبالفعل: تُثبت الاكتشافات الأثرية أن هذا النظام الثنائي بين الجنسين موجود بالفعل، على ما يبدو، منذ بداية البشرية. أمرٌ مُحرج بعض الشيء لجميع النسويات اللواتي يُثرثرن عن المساواة بين الجنسين، وأكثر إحراجًا لمن يفترض وجود أكثر من جنسين طبيعيين! ألا يُعلّمنا التاريخ كل ما نحتاج لمعرفته عن التعايش بين الرجال والنساء؟

حسنًا، نظريًا، هذا صحيح. أما عمليًا، فالأمر أكثر تعقيدًا بعض الشيء، لأننا، بالطبع، نجد صعوبة في التخلي عن تحفظاتنا المكتسبة وأنماط تفكيرنا، حتى عندما نعود بالذاكرة إلى الماضي. فيما يتعلق بالجنس، يُطلق على هذا في العلوم اسم "تأثير التحيّز القائم على النوع الاجتماعي". يصف ذلك كيف تؤثر التحيزات والصور النمطية الجنسية على تفكيرنا تأثيرًا عميقًا لدرجة أنها تشوه إدراكنا للعالم. على سبيل المثال، عندما استكشف منظرو التطور في القرن التاسع عشر الأصول البيولوجية للحياة البشرية، كانت لديهم أفكار واضحة جدًا حول الجنس. فكتب تشارلز داروين في كتابه "أصل الإنسان" عام 1871:

> "إن الفارق الرئيسي في القدرات الفكرية بين الجنسين هو أن الرجل يصل إلى ارتفاع أعظم في كل ما يقوم به مما تستطيع المرأة أن تصل إليه، سواء كان يتطلب تفكيرًا عميقًا، أو عقلًا، أو خيالًا، أو مجرد استخدام الحواس واليدين."[1]

بصراحة، بعد قراءة هذه المقولة، من يصدق حقًا أن داروين كان قادرًا على التوصل إلى نتائج علمية محايدة بشأن النساء؟ حسنًا، لقد فعل ذلك بالضبط عالَم البحث العلمي الذي كان يهيمن عليه الرجال في القرن التاسع عشر. إلى حد كبير شارك علماء آخرون نفس التحيزات تمامًا مع داروين، وبحثوا بلا كلل في التاريخ البشري وعلم الأحياء عن أدلة على تفوق الذكور. شكّل الصيادون نقطة انطلاق رائعة لهذا الافتراض: فقد شكّل التقسيم الواضح للأدوار دليلًا على أن هذا يجب أن يكون النظام الطبيعي بين الرجال والنساء، المتجذر بالفعل في بيولوجيتهم. وأكدت

الاستكشافات الأثرية الأولية هذا الرأي. عُثر على أسلحة وأدوات صيد في قبور الرجال، بينما تلقت النساء المجوهرات كمقتنيات جنائزية. وهكذا، في العقود التي تلت ذلك، استمر التنقيب في التاريخ، كاشفًا عن عدد لا يحصى من الأدلة الصغيرة والكبيرة على تلك الأفكار الخاصة حول الوجود البشري. النهاية!

مَهلًا، أرجوك لا تغلق الكتاب بعد. هذه مجرد مقدمة! لذا ربما علينا البدء من البداية لا من النهاية، أليس كذلك؟ حسنًا، خلال السنوات القليلة الماضية، كان هناك بالفعل منظور جديد لماضينا. في عام 2018، اكتُشف قبر محارب مُحمّل بالأسلحة في جبال الأنديز البيروفية. تم باستخدام أحدث التقنيات تحليل العظام التي يبلغ عمرها حوالي 9000 عام تحليلًا سُلاليًا، فأُجري فحص الحمض النووي - وثبت أمرٌ لا يُصدق: الهيكل العظمي كان لامرأة[2] لا بد أن هناك خطأ، أليس كذلك؟ من الأفضل إرسال عينات عظام من اكتشافات أخرى للتحليل الجيني. لكن في الواقع، 30 إلى 50% من الهياكل العظمية التي فُحصت، والتي سبق تحديدها على أنها ذكور بناءً على الأسلحة والأدوات الموجودة في القبور، كانت بيولوجيًا أنثوية. وتُظهر دراسات أخرى أُجريت حول العالم أن البيانات المتعلقة بالجنس المستمدة من المقتنيات الجنائزية كانت غير دقيقة في الماضي. ومؤخرًا، صحّح علماء الآثار اكتشافًا مثيرًا من عام 2008: في ذلك الوقت، اكتُشف قبر حاكم قوي من العصر النحاسي بالقرب من فالنسيا في جنوب إسبانيا، أُطلق عليه اسم "رجل العاج"، في إشارة إلى المقتنيات الجنائزية والأسلحة العاجية الرائعة، والتي كانت مختلفة بوضوح عن المقابر الأخرى من تلك الفترة. لكن اختبارات الحمض النووي التي أُجريت عام 2023 كشفت أن رجل العاج كان في الواقع سيدة عاجية. ليس هذا فحسب: فقد خلص الباحثون في دراستهم أيضًا إلى أنها:

> "كانت شخصية اجتماعية بارزة في زمن لم يكن فيه رجلٌ يشغل حتى مكانةً اجتماعيةً تُضاهيها ولو من بعيد. ويبدو أن نساءً أخريات فقط، دُفنَّ بعد فترةٍ وجيزةٍ في [...] جزءٍ من المقبرة نفسها، إذ كُنّ يتمتعن بمكانةٍ اجتماعيةٍ رفيعةٍ مماثلة.

يبدو أن النساء فقط كنّ قائدات في تلك المنطقة قبل 5000 عام. ألم يكن هناك فصل صارم بين الرجال والنساء بين أسلافنا؟

حسنًا، ربما ينبغي لنا العودة سريعًا إلى الحاضر. في دراسة أنثروبولوجية أُجريت عام 2023، أُجريت دراسة دقيقة على 391 مجتمعًا حول العالم لا تزال تعتمد على الصيد وجمع الثمار في الحصول على غذائها. كشفت البيانات أنه في 80٪ من مجتمعات الصيد وجمع الثمار الحديثة التي دُرست، تشارك النساء في الصيد - وهذا ينطبق على جميع أنحاء العالم. بشكل عام، تُعتبر الأدوار الجندرية في الثقافات الأصلية أقل صرامةً بكثير، وليست ثنائيةً حصريًا، حيث تقتصر على الرجال والنساء. كما أن الهويات الجندرية كانت دائمًا معقدة عبر التاريخ البشري، وهو ما تشير إليه أيضًا القبور التي عُثر عليها حول العالم والتي احتوت على مقتنيات جنائزية مختلطة. وقد خلص علماء الآثار المشاركون في دراساتهم إلى أن هذه الحفريات تُشكك في فهمنا الغربي الثنائي للجنس.

لنلخص الأمر: لطالما اعتبرنا أن المقتنيات الجنائزية وحدها هي التي تحدد جنس الشخص المدفون؛ ولقرون، كان يُنسب أي قبر يحتوي على أسلحة، أو يدل على منصب قيادي خلال الحياة؛ تلقائيًا إلى رَجل. إلا أن الأبحاث التي تُشكك في تلك النظرة الثنائية والمتحيزة جنسيًا للوجود البشري لم تبدأ إلا مؤخرًا. وقد اتضح أن لدينا جميعًا تحيزًا جنسيًا يُشكل بقوّة أفكارنا عن التاريخ - وسنتناول هذا التحيز بمزيد من التفصيل في سياق هذا الكتاب.

كثيراً ما يُوجَّه إليّ السؤال عن سبب اهتمامي الشديد بالتاريخ. عادةً ما أجيب بأن الماضي يُبهرني لأنه يُفسر حاضرنا. كل شيء على ما هو عليه لأن كل شيء كان على ما كان عليه. إذا دققنا النظر، نجد أن التاريخ يُقدم لنا إجابات عديدة على أسئلة اليوم. يُمكننا ملاحظة كيف تُكرر الصراعات والنقاشات نفسها. يُمكننا مُقارنة الحلول التي توصلنا إليها نحن البشر لتحديات الماضي، ونسأل أنفسنا هل ينبغي علينا فعل الشيء نفسه اليوم بنفس الطريقة، أم من الأفضل أن نقوم بذلك بشكل مُختلف. يُمكننا التحذير عندما تستمر بعض الأنماط التي كانت تُمثل تاريخيًا مُشكلة، أو عندما تتكرر. في الوقت نفسه، أشعر دائمًا أن التاريخ أشبه بعمل بوليسيّ - لا يزال هناك الكثير من الأسئلة التي لم نُجب عليها، وقطع مفقودة من اللغز تنتظر اكتشافها وجمعها. هذا ليس بالأمر السهل دائمًا، لأن التاريخ أيضًا أداة قوة، غالبًا ما يتم التقليل من شأنها. من يُشارك في تحديد كيفية تفكيرنا في التاريخ، ومن نعرف شيئًا عنه، وأي وجهات نظر نتبناها، وأي الروايات نستمع إليها، ومن لا يُسمع صوته؟ تشير الصفحات القليلة الأولى من هذه المقدمة بالفعل إلى أنه يمكن للمرء دائمًا تكييف الماضي - سواء بوعي أو بغير وعي - ليناسب احتياجاته الخاصة. إن بناء إجابات بسيطة من التاريخ لأسئلة الحاضر المعقدة، من أجل تأكيد رؤية المرء للعالم، يعمل بشكل جيد للغاية، بعد كل شيء. وكذلك: هذا بالضبط ما سيتهمني به بعض الناس عندما يسمعون بهذا الكتاب. امرأة أخرى لا تستطيع تحمل حقيقة أن العالم من صُنع الرجال! نسوية أخرى، تشوه الماضي حتى يتناسب مع أيديولوجيتها، مهما كان الثمن! أعلم أن هذه الاتهامات ستأتي لأنها وُجهت ضدي مرات عديدة من قبل. بصفتي صحفية ومقدمة برامج، كنت أصنع أفلامًا حول مواضيع تاريخية لبعض الوقت. منذ نهاية عام 2020، كنت أيضًا نشطة على وسائل التواصل الاجتماعي، حيث أنشر مقاطع مصورة أتحدث فيها عن مواضيع مختلفة متعلقة بالتاريخ. آمل أن ألهم أكبر عدد ممكن من الناس بشأن التاريخ! كما أسعى في عملي جاهدةً أيضًا لسرد الماضي، بالأساس، من منظور مَن لم يكن لهم مكانٌ في التأريخ الأوروبي الذكوري لفترة طويلة: النساء، والمثليون، والملونون، والأقليات الأخرى. أرى هذا النهج تصحيحيًا، لأن تصوير الرجال *البيض** وحدهم من فعلوا أو قالوا أو فكروا في أمورٍ مهمة هو ببساطة غير صحيح - ومع ذلك، فإن هذا السرد يُشكل إدراكنا للتاريخ بشكل كبير. وليس فقط عندما يتعلق الأمر بالصيادين وجامعي الثمار! لقد اعتدنا على "رجال التاريخ العظماء"، لدرجة أنه كلما غاب التركيز عنهم، سرعان ما يأتي الاتهام بالتقليل من قيمة إنجازاتهم، أو بإعادة كتابة التاريخ. لطالما سمعتُ أن عملي يندرج تحت مجال عمل النُشطاء - ببساطة لأنني أتحدث عن كيفية مساهمة النساء، والمثليين، والملونين، والأقليات الأخرى في ماضينا الجماعي. بالتأكيد يعود ذلك، من بين أمور أخرى، إلى أن الناشطين والناشطات أنفسهم كانوا في السابق هم من يقع على عاتقهم بشكل أساسي مهمة معالجة تاريخهم الخاص والنضال من أجل الحصول على الاعتراف في الخطاب التاريخي. مع ذلك، يظل بالنسبة للبعض من غير المعقول - أو لا يتوافق مع رؤيتهم للعالم - أن الرجال *البيض* لم يعودوا وحدهم من يتربعون على عرش التاريخ. لحسن الحظ، هناك عدد متزايد من الناس على استعداد لإمعان النظر والتساؤل عمّا إذا كانت رؤيتنا للتاريخ، كما رُويت حتى الآن، دقيقة بالفعل. وقد كُتب عديد من الكتب، والمساهمات في الخَطاب، التي تُشكك في أنماط التفكير التمييزية، وتُعطي صوتًا لوجهات نظر وأصوات كانت مُتجاهلة سابقًا. في السنوات الأخيرة، أتيحت لي أيضًا فرصة إجراء عديد من المحادثات مع مديري المتاحف ومكاتب التحرير وأساتذة الجامعات ومؤرخين آخرين.

---

* نكتب في هذا الكتاب، كلمة *أبيض* بالخط المائل، للتأكيد على أن هذا ليس وصفًا للون البشرة، بل هو دليل على موقع قوة سياسية واجتماعية. نكتب كلمة أسود بخطٍ غامق، لأنه وصف سياسي ذاتي للأشخاص المتضررين من العنصرية ضد أصحاب البشرة السوداء.

فضلًا عن ذلك ألاحظ اهتمامًا متزايدًا برواية التاريخ بأسلوب أكثر تنوعًا. كما أن التعليقات الواردة من صناع محتوى آخرين على المقاطع المصورة، التي أنشرها، وفي أقسام التعليقات، تُشعرني بالتفاؤل، وأن الوعي بأهمية التعامل مع الماضي بطريقة تُراعي الجميع ربما يكون أكبر من أي وقت مضى. لذا، عندما خطرت لي فكرة تأليف كتاب، سرعان ما اتضح لي موضوعه!

لنبدأ من البداية: في 28 فبراير 2021، نشرتُ أول مقطع مصور على قناتي تحت اسم heeyleonie@ حول موضوع، كنتُ أعلم منذ البداية أنه سيتحول إلى سلسلة كاملة: "نساء سرق الرجال إنجازاتهن، وحصدوا الشهرة على ذلك". كان المقطع المصور عن عالمة الكيمياء الحيوية البريطانية روزاليند فرانكلين، وكيف حاز زميلان لها على جائزة نوبل عن *أعمالها*. في غضون ذلك، تم إنشاء 16 مقطعًا مصورًا على حسابي تحت عنوان "نساء سُرقن". حسنًا، ماذا عساي أن أقول؟ هناك الكثير من السِيَر الذاتية التي تكفي لملء كتاب كامل. نساء حققن إنجازات، فكرن، قلن، وناضلن من أجل إنجازات عظيمة، ومع ذلك طواها النسيان اليوم، أو اختفت خلف أسماء "الرجال العظماء". جميعنا نعرف المثل القديم: "وراء كل رجل ناجح امرأة قوية". أجد ذلك متجاوزًا إلى حد كبير، لأنه يمجّد بالضبط الدور، الذي كان يتم استغلال النساء في الماضي من خلاله: أن يبقين في الخلفية لدعم الرجل ومساندته في تقدمه، دون أن يشتكين، بل وأن يكنّ ممتنّات لكونهن مجرد امتدادًا له، دون أي تقدير أو اعتراف. ومع ذلك، لا شك أن في هذه المقولة شيئًا من الحقيقة، حرفيًا. لأن وراء عديد من الرجال الناجحين في التاريخ كانت هناك في الواقع نساء، غالبًا عدة نساء، لولاهن لما حقق هؤلاء الرجال ذلك النجاح. ومع ذلك، لم تختار سوى قلة قليلة من النساء هذا الدور، وكثيرات منهن تحطمن لعجزهن عن الهروب من وجودهن في الظِل. لذلك آمل بشدة أن أتمكن من خلال هذا الكتاب على الأقل من إعادة جزء من صوتهن إليهن، والمساهمة في حصولهن بأثر رجعي على الاهتمام والتقدير الذي كُن يستحققنه خلال حياتهن.

مع ذلك، أود أيضًا توضيح أن الفصول التالية لا تتناول أساسًا مصائر الأفراد، بل النظام الذي يقف وراءها. المثل الذي ذكرته للتو ينبغي أن يكون: "وراء كل *رجلٍ* ناجحٍ نظامٌ يدعمه؛ وأمام *كل الأخريات* هناك نظامٌ يُعيقهن". في الصفحات التالية، سنتناول كيف ترسخت هذه المنظومة بشكل ملموس في أوروبا على مدى المئتي عام الماضية، وتأثيرها على قيمنا الاجتماعية الحالية، ونقاشاتنا السياسية، ولوائحنا القانونية. اخترتُ تحديدًا جغرافيًا لأتمكن من سرد وتصنيف تطور الهياكل الأبوية، ليس فقط في مناطق محددة، بل في استمراريتها التاريخية. فحتى لو كان النظام الأبوي بصورته الحالية موجودًا في جميع أنحاء العالم (شكرًا للاستعمار!)، فإن الإطار التاريخي، وعلاقات القوة السياسية، ونقاشات النوع الاجتماعي ليست هي نفسها في كل مكان. على سبيل المثال، في إيران، تبلغ نسبة النساء بين الطلاب الذين يدرسون العلوم أو الرياضيات حوالي 70%. وفي الدول العربية المجاورة، تهيمن النساء أيضًا على ما يسمى بمجالات العلوم والتكنولوجيا والهندسة والرياضيات STEM. في ألمانيا، من المؤكد أن وجود نسبة مرتفعة كهذه سيكون دليلًا على تزايد المساواة بين الجنسين؛ ومع ذلك، في إيران، في ظل نظام الملالي الذي يحكم منذ عام 1979، لا تتمتع النساء حتى باستقلالية في اختيار الملابس التي يرتدينها في الأماكن العامة. يمكن في التاريخ العثور على أسباب هذه التناقضات الواضحة في المساواة بين الجنسين. أظهرت الدراسات أن الفصل الصارم بين الجنسين وقواعد اللباس في الفصول الدراسية في البلدان ذات الطابع الإسلامي أدّى، على سبيل المثال، إلى أن الطالبات لم يشعرن في كثير من الأحيان بعدم الانتماء أو بأنهن يُختزلن في جنسهن، خصوصًا في المواد العلمية مثل الفيزياء. في إيران على وجه الخصوص، بدأت النساء في التقدم في العالم المهني الذي يهيمن عليه الرجال، وخاصة خلال حرب الخليج الأولى من عام 1980 إلى عام 1988. يجب سرد هذه التطورات واستمراريتها وسياقها الجيوسياسي بدقة ووضعها في كتاب مدرسي للتاريخ. هناك مؤرخون وصحفيون وناشطات في مجال حقوق المرأة وخبراء آخرون متميزون يمتلكون المعرفة الثقافية والتاريخية والمهارات اللغوية

والمنظور الصحيح، والذين كتبوا بالفعل كتبًا مماثلة - على سبيل المثال، كتاب "نهضة الخمسين مليونًا. الجيل الجديد من النساء العاملات اللاتي يغيرن العالم الإسلامي" (2018)، الذي استخدمت فيه الخبيرة الاقتصادية الباكستانية والمديرة الإدارية للمنتدى الاقتصادي العالمي سعدية زاهيدي سيرًا ذاتية مختلفة لتوضيح كيف تناضل النساء المسلمات من أجل مكان في عالم العمل ويساعدن في تشكيل الاقتصاد (يمكن العثور على قائمة شاملة بالقراءات الموصى بها في نهاية هذا الكتاب). تكمن خبرتي الخاصة في التاريخ الاجتماعي الحديث لأوروبا، وهذا هو سبب كتابتي عنه. وهذا أيضًا أحد أسباب اختياري للحد الزمني.

يبدأ هذا الكتاب بثورات مارس في أوروبا عامي 1848 و1849، والتي دارت حول المشاركة السياسية وإرساء الديمقراطيات. شاركت النساء بفاعلية في تلك الثورات، لكنهن، على عكس الرجال، خرجن بحقوق أقل لا أكثر. في الصفحات التالية، سنلتقي بعديد من النساء اللواتي تأثرت مصائرهن بدورهن الاجتماعي المحدد كنساء. كما لعبت عوامل أخرى، مثل أصولهن، ولون بشرتهن، وانتماءاتهن الدينية أو العرقية، وميولهن الجنسية، وهوياتهن الجندرية، دورًا حاسمًا في مسار بعض خطط الحياة، لا يقل عن تأثير الجنس البيولوجي. كلما تقدمنا في التاريخ واقتربنا من الحاضر، تناقلنا سيرًا ذاتية لأشخاص اختلف وجودهم عمّا عُرف ـ بحلول منتصف القرن التاسع عشر على أبعد تقدير ـ بـ"النموذج الإنساني": الرجل الأبيض البرجوازي المسيحي. على العكس من ذلك، يعني هذا أيضًا أنه كلما تعمقنا في التاريخ وابتعدنا عن الحاضر، ازدادت صعوبة العثور عليهن. لطالما أُهملت النساء واليهود والعمال والملونون والمهاجرون وذوو الإعاقة وأفراد مجتمع الميم والمسلمون وغيرهم من الفئات في التاريخ الأوروبي. ربما يمكن القول مجازيًا إنهم لم يحصلوا على أي نصيب. في الواقع، حُرم هؤلاء من المشاركة في الخطاب السياسي. حُرموا من فرصة رؤية أنفسهم جزءًا من المجتمع، والدفاع عن أنفسهم، وتمثيل مصالحهم الخاصة؛ وعندما فعلوا ذلك، وقعوا تحت وطأة السلطة الكاملة للجهاز السياسي، الذي قمع وجودهم. لا أريد أن أستبق الأحداث كثيرًا في هذه المرحلة، ولكن أود الإشارة إلى أن "الجهاز السياسي" لا يشير إلى نخبة غامضة في الغرف الخلفية، بل إلينا جميعًا. نحن جميعًا جزء من مجتمع نشكله معًا. ومع ذلك، يمتلك بعض الناس، تاريخيًا، موارد أكبر بكثير من غيرهم لإسماع أصواتهم، وتعزيز مصالحهم الخاصة، وبالتالي المساهمة في تشكيل القواعد الاجتماعية بما يخدم مصالحهم. دعونا نعود الآن إلى ما يقرب من مئتي عام مَضَت، وندخل أوروبا حيث يدور بلا هوادة النضال من أجل هذه المشاركة السياسية على وجه التحديد ـ وحيث كان من الممكن أن تسير العديد من الأمور بشكل مختلف.